الفصل الثاني :
مفهوم العلم عند النقاد العرب

كل الظواهر تدل على أن ميدان البحوث والدراسات النقدية والأدبية في ثقافتنا العربية المعاصرة لم تستفد من منجزات المنهج العلمي بمعنى ما من المعاني، وإن النقاد والباحثين العرب لم يلتفتوا إلى الإنجاز المنهجي الخطير الذي قام به طه حسين في كتابه المسمى "في الشعر الجاهلي" الذي صدر عام 1926 باعتباره أول بحث أدبي عربي يطبق صاحبه منهج أو شروط الروح العلمية في معالجة موضوعه، لم يحاول أحد النقاد أو الباحثين إلقاء الضوء على المنهج أو محاكاة طه حسين في هذا المنهج. فالذين تحدثوا عن الكتاب، تحدثوا عنه من زاوية موضوعه وزاوية الرد عليه، واعتبر د. سيد البحراوي في كتابه المسمى "البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث" إن اهتمام طه حسين "بالمنهج أكثر من الموضوع[1] يعد من وجهة نظره عيبًا وقع فيه طه حسين، لماذا؟ لم يحدد لنا السبب الذي جعله يذهب إلى هذا الاعتقاد؟ فهذا التصور يعد تصورًا خاطئًا، لأن الاهتمام بالموضوع فقط دون المنهج هو تصور تبسيطي ساذج لمعالجة الظواهر والقضايا الأدبية المركبة، وهو في الحقيقة تلخيص لنظرة ثقافة الشرق العربي لما هو جوهري في الدراسة الأدبية، وهو الموضوع، لم يدرك د. البحراوي أن الجوهري في البحث أو الدراسة هو المنهج، وليس الموضوع أو مادته، لم يدرك هذا ولم يدرك أيضًا أن طه حسين طبق منهج ديكارت واستعان بالحدس والاستنباط، وجعل من العقل وحده صاحب السلطان، ورفض الأفكار المسبقة، وحلل نصوص الشعر على ضوء بعض الفروض التفسيرية، وكان أول باحث في ثقافة الشرق

يوظف المنهج العلمي في دراسة الأدب، وكان ذلك يجب أن يكون محل إعجاب وتقدير من البحراوي.

لقد خلط البحراوي بين الحديث عن موضوع كتاب طه حسين، وبين الحديث عن منهجه، فما ذهب إليه البحراوي في كتابه المشار إليه سابقًا ليس حديثًا عن منهج طه حسين في الشعر الجاهلي، بل حديث عن أسباب الضجة التي أثارها ظهور كتاب الشعر الجاهلي وحديث عن الأحداث التي صاحبت صدوره.

لم يقصد بوضوح منذ البداية إلى الحديث عن منهج طه حسين، بل حدثنا عن تفسيره لاتجاه طه حسين بطريقة صادرت عن الهدف الذي وعد بالحديث عنه في بداية الدراسة، ولعل ذلك يرجع إلى كون البحراوي لم يكن في بنائه الذهني منذ بداية الدراسة، تعريف محدد "للمنهج"، وتورط كما تورط غيره من الباحثين في مأزق الخلط بين مفهوم "المنهج" ومفهوم "الاتجاه" الذي يتبناه الباحث.

إن البحراوي يعتقد أن مجرد الحديث عن الآراء التي هاجمت كتاب "في الشعر الجاهلي" والحديث عن التهم التي وجهت إلى طه حسين والحديث عن تقسيم موضوع الكتاب، وكيف أن صاحبه تبنى منهج ديكارت، حديث عن المنهج، في حين أن ذلك خروج وتجاوز في الحديث عن المنهج.

والدليل على ذلك أن البحراوي ترك هذا الموضوع جانبًا، وذهب يحدثنا عن مجموعة إسقاطات تفسيرية ذات طابع أيديولوجي معين على اتجاه طه حسين، وعلى انتمائه الاجتماعي، وعلى عناية طه حسين بتوثيق الهوامش والإشارة إلى المصادر العربية القديمة، وعن مقدمة الطبعة الثانية لكتاب الشعر الجاهلي.

ومن الجلي أن هذه الموضوعات لا تمس موضوع المنهج من قريب أو بعيد، وهذا التصور من إملاء سوء فهم البحراوي للمنهج وللإسقاطات الإيديولوجية التي تسيطر على بحثه، ومن أبرز الأمثلة في هذا السبيل، فكرته عن المنهج، فهو إلى جانب الخلط بين الموضوعات والمصادرة عن الموضوع لا يستخلص منهج طه حسين من خطواته الفعلية في معالجة الشعر الجاهلي، وإنما من حديث طه حسين نفسه عن المنهج، ومن أحاديث الآخرين عنه وهذا خطأ منهجي في تناول موضوع المنهج عند باحث أو

ناقد معين، كما سنوضح في موضع آخر من دراستنا.

على أننا لسنا الآن بصدد مؤاخذة البحراوي على اضطراب خطواته في تحديد سمات منهج طه حسين في بحثه عن الشعر الجاهلي، كل ما نريده في هذا الموضع أن نوضح أن البحراوي لم يوفق في إبراز سمات منهج كتاب "في الشعر الجاهلي" وأن منهجه في هذا الخصوص لم يكن منهجًا علميًا بالمعنى الواسع أو الضيق، لم تغذيه النصوص، أو تقومه بين الحين والحين، وإنما هو منهج يمضي فيه الباحث غالبًا من النتائج التي استخلصها من آراء مختلفة لعدد من الباحثين توجهه بعض الأفكار الأيديولوجية من جهة وأنه لم يكن على درجة معينة من الثقافة العلمية من جهة أخرى تتيح له تحقيق درجة من الوعي بالأهمية البالغة لمنهج طه حسين في معالجة الشعر الجاهلي، بصرف النظر عن آراء صاحبه، وكيف إنها أثارت حوله ضجة كبرى، لكن كيفية طرحه لموضوعه وكيفية معالجته له تؤكد حقيقة مهمة في تاريخ الدراسات الأدبية، ألا وهي: إن هذه الدراسة تعد أول دراسة أدبية تطبق المنهج العلمي القائم على الملاحظة، إلى جانب الفروض والاستدلال.

وهذا المنهج لم يحاول بعض باحثينا المعاصرين أن يحاكوه أو يأخذوا منه الروح العلمية التي تسيطر عليه، فالمنهج العلمي أو شروط الروح العلمية أو الاستفادة من منجزات العلوم الإنسانية أو التجريبية في ميدان الدراسات الأدبية العربية ـ كما نستخلص من كثير من الأمثلة المعاصرة ـ عبارة عن ألفاظ أو أقوال وليس منهج في التعامل مع النصوص، فالعلم أو المنهج العلمي عند كثير من باحثينا ـ كما سنوضح في موضع آخر ـ أقوال وعبارات إنشائية أو مجرد نمط من اللغو الشكلي والشعارات الزائفة .

والنظرة الدقيقة عبر نصوص دراسية عديدة لعدد كبير من أساتذة مشهورين كفيلة بأن تطلعنا على أن ميدان الدراسات الأدبية المعاصرة ميدانًا تسيطر عليه اللغة العادية والنزعة المعلوماتية حول الموضوع الذي يدور حوله البحث أو الدراسة، دون الاستعانة بالمنهج العلمي أو بعض عناصره المختلفة، أو دون محاولة الوصول إلى تحقيق نمط من النتائج المحددة.

فالقارئ لا يجد إلا نادرًا بحثًا أو دراسة حاول صاحبها أن يستعين في خطواته بمنهج الملاحظة أو منهج اختبار الفروض، أو الاستدلال، أو حاول في نهاية عمله أن يلخص لنا النتائج التي توصل إليها من خلال بحثه أو دراسته.

وإلى القارئ نماذج عديدة ومختلفة من الدراسات الأدبية العربية المعاصرة التي لأصحابها من ذيوع الصيت والشهرة الواسعة في ثقافة الشرق العربي، ونحن نقصد هنا نماذج الدراسات التي قدمها كبار الأساتذة في النقد وفي الدراسات الأدبية للمؤتمر الدولي للنقد الأدبي تحت عنوان "النقد الأدبي عند منعطف القرن"، وكانت حصيلة هذا المؤتمر ـ حسب عبارة أستاذ من كبار الأساتذة هو الدكتور عز الدين إسماعيل ـ حوالي ستين دراسة علمية موزعة على المحاور الأساسية المختلفة التي دارت حولها هذه الدراسة[5].

ويهمنا أن نتوقف عند نماذج من الدراسات الأدبية لنقاد وباحثين لهم شهرة واسعة ـ كما ألمحنا سابقًا ـ ويهمنا كذلك أن نبرز في هذه الدراسات الجانب العلمي الذي أكده مقرر المؤتمر الدكتور عز الدين إسماعيل، حيث وصف هذه الدراسات بصفة "العلمية"، وهذا الوصف صادر من أستاذ له قيمته وله وزنه العلمي في مضمار الدراسات العربية والنقدية، وهذا الرأي يجعل القارئ المتخصص وغير المتخصص يحاول الإفادة من هذه الدراسات لأنها دراسات علمية، فهذا الحكم أو التقييم لهذه الدراسات يجعلنا نطمئن ونستريح لمنهج هذه الدراسات، ونشعر بالثقة في النتائج التي توصل إليها أصحابها.

والستون دراسة هذه ضمها ثلاثة مجلدات، الأول[6] تضمن أسماء نقاد وباحثين معروفين لدى القارئ في مختلف الأقطار العربية، ذلك مثل: د. عبد السلام المسدي، د يمنى العيد، د. عز الدين إسماعيل، د. أبو الفضل بدران، د. فريال جبوري عزول، د. حامد أبو أحمد، د. محسن جاسم الموسوي، د. سعد البازعي، د. وليد منير، د. سيد البحراوي، د. يوسف بكار.

وفي المجلد الثاني[7] يجد القارئ هذه الأسماء: د. نسيمة الغيث، د. جميل عبد المجيد، د. موسى ربابعة، د. مصطفي الكيلاني، الأستاذ سيد قطب، د. منى صفوت،

د. سعيد توفيق، د. حسن البنا، د. عفت الشرقاوي، د. محمد غيث، د. حورية حسن. د. آمال الحضري.

وفي المجلد الثالث[8] نجد دراسات للدكتور لطفي عبد البديع، د. رجاء عيد، د. سعيد مصلوح، د. صلاح رزق، د. عصام بهي، د. صلاح قنصوة، د. محمد السرغيني، د. محمد فتوح. د. يوسف أبو العدوس. د. محمد الهادي الطرابلسي. د. محمد عبد المطلب، د. توفيق بكار، د. مصطفى عبد الغني، د. شكري عزيز الماضي، د. نبيل حداد، د. أحمد السعدني.

نحن نعتقد أن أصحاب هذه الأسماء قدموا للمؤتمر نصوص دراسات علمية، وما علينا إلا أن نطلع عليها ونبرز خصائصها العلمية، فمقرر المؤتمر من كبار الأساتذة في ثقافة الشرق، أكد لنا ذلك، وعلى هذا الأساس نفترض أن قارئ هذه النصوص سيجد في مختلف عناصرها أبسط مظاهر الدراسة العلمية الأدبية، ذلك مثل تحديد مدلول المصطلحات أو المفاهيم، لتجنب اللبس والغموض وتوافر شروط الروح العلمية في معالجة الموضوع.

هل هذه الشروط متوافرة في الدراسات التي قدمت للمؤتمر؟ الجواب يفرض علينا أن نتوقف عند تحليل نماذج منها، وإن كنا نظن كالقارئ أن تكون هذه الشروط متوافرة لسببان: الأول أن مقرر المؤتمر ـ كما ألمحنا من قبل ـ من كبار الأساتذة نعت الدراسات المقدمة بكلمة "علمية" وأن على القارئ أن يأخذ بهذا الرأي دون أدنى شك أو تردد، الثاني: أن أغلب أصحاب الدراسات المقدمة باحثون ونقاد وأساتذة في الجامعات، لهم باع طويل في ميدان البحث و الدرس الأدبي أو النقدي، وعلى هذا الأساس يقدم القارئ على قراءة نصوص دراساتهم، ولديه اعتقاد راسخ بأنه سوف يستفيد من خبرات هؤلاء الباحثين على المستويين العلمي والمعرفي في وقت واحد.

وفيما يلي جدول يوضح الدراسات الواردة في المجلد الأول.

جدول رقم (1)

المسلسل	اسم الباحث أو الناقد	العدد	عنوان الدراسة
1	د. عبد السلام المسري	1	النقد الأدبي وتوليد الأنساق
2	د. يمنى العيد.	2	النقد الأدبي ومسألة المرجع
3	د. عز الدين إسماعيل	3	النقد الأدبي إلى أين؟
4	الأستاذ إبراهيم فتحي	4	التفاعل بين المناهج النقدية
5	د. عبد السلام بنعبد العالي	5	تفكيك النقد
6	د. سعيد علوش	6	نظرية العماء الأدبي وبلاغة التشويش النقدي
7	د. أبو الفضل بدران	7	موت النص
8	د. فريال جبوري غزول	8	خطاب ما بعد الاستقلال في أفريقيا
9	د. حامد أبو أحمد	9	التعددية الثقافية والتفاعل النقدي
10	د. محسن جاسم الموسوي	10	النظرية والسنة الغربية
11	د. سعد البازعي	11	مستقبل النقد: غربة السياق
12	د. وليد منير	12	في نقد الخطاب النقدي
13	د. سيد البحراوي	13	مأزق الناقد العربي على مشارف القرن القادم
14	د. يوسف بكار	14	نقادنا ونقدنا العربي الحديث
15	د. السيدة فضل	15	النص والواقع
16	د. ميجان الرويلي	16	النظرية الأدبية: لها ما عليها

من استقراء مضمون الدراسات الواردة في الجدول السابق نلاحظ الآتي:

أولاً: أن الغالبية العظمي من الدراسات يسيطر عليها الاهتمام البالغ بالمعلومات المتعلقة بموضوع الدراسة من زاوية الحداثة أو الجدة دون الاهتمام بالإطار العلمي الذي يصيغ الموضوع، ومن المحقق أننا لا نستطيع إغفال أو إنكار فائدة هذه الموضوعات وأهمية المعلومات الواردة فيها، لكن الباحث العلمي لا يستطيع الاعتماد عليها لأنها تعد من قبيل المعرفة غير العلمية، فهذه الفئة من الدراسات تشبه في

معالجتها أسلوب المقال الصحفي، لا أسلوب المقال العلمي، نظرًا لأنها تفتقد لشروط الروح العلمية كما سنوضح فيما بعد.

إن الدافع الأساسي وراء هذه الفئة من الدراسات أو البحوث هو رغبة أصحابها في الحديث أو الكلام أو عرض أفكارهم على الآخرين، إذ لم يحاول أحد أن ينشغل بمسألة كيفية الإسهام علميًا بدراسة نقدية أو أدبية تساعد القارئ المتخصص وغير المتخصص في تطوير فكره أو بحثه أو مفاهيمه العلمية.

ويعتقد أصحاب هذه الفئة من الدراسات ـ كالصحفيين ـ أن قدراتهم ومهارتهم الفكرية تتمثل في قيمة الموضوع وحداثته لا في أسلوب معالجة الموضوع وفق معايير علمية أو موضوعية، وهذا الاعتقاد يجعل القارئ يختلط عليه الأمر ولا يستطيع أن يحدد المعايير أو المقاييس التي تجعل من دراسة معينة تتصف بقيمة معينة ودراسة أخرى لا تتصف بهذه القيمة، لأنه فاقد الوعي بأهمية توافر شرط الروح العلمية في بحث أو دراسة، والمحصلة الطبيعية لذلك أن يعتقد كصاحب البحث أو الدراسة أن الموضوع والمعلومات حوله هما الجوهر الحقيقي والمقياس الأساسي للدراسة العلمية، هذه بعض الأسباب التي تعاونت معًا على صبغ هذه الفئة من الدراسات بصبغة المقال الصحفي.

ثانيًا: إن الفئة الثانية من هذه الدراسات وهي تمثل دراسة واحدة اتسمت بخصائص الروح العلمية، ويمكن اعتبار تحديد سؤال تدور حوله الدراسة، أو وضع فرض من الفروض التفسيرية، أو محاولة الوصول في نهاية الدراسة إلى عدد محدد من النتائج مظهرًا من هذه المظاهر.

نظرة تفصيلية:

فيما يلي عرض مفصل للدراسات التي يمكن أن تصنيفها في الفئة الأولى، وهي قليلة، والأخرى يمكن أن تصنفها في الفئة الثانية وتشكل الغالبية العظمى، معنى ذلك أننا استطعنا أن نصنف الدراسات الواردة في الجدول إلى فئتين:

الأولى: دراسات تعتمد على لغة ومفاهيم النص العلمي.

الثانية: دراسات تعتمد على لغة ومفاهيم النص الصحفي.

ويندرج تحت دراسات الفئة الأولى دراسة واحدة هي الدراسة المسماة "النقد الأدبي ومسالة المرجع" (يمنى العيد) وتتسم هذه الدراسة بعدة سمات:

(أ) سيطرة شروط الروح العلمية على معالجة الموضوع.

(ب) الاستعانة باللغة التفسيرية في العلاقة بين النص والمرجع.

(جـ) لا يعيبها سوى الجنوح أحيانًا نحو الغموض.

ويندرج تحت الفئة الثانية الدراسات الآتية :

(1) التفاعل بين المناهج النقدية (إبراهيم فتحي)، وتتسم بالآتي:

(أ) غياب سؤال أو فرض الدراسة.

(ب) سيطرة اللغة العادية على النص.

(جـ) غياب تحديد مدلول الاصطلاحات.

(د) غياب النتائج .

(2) النقد الأدبي وتوليد الأنساق (عبد السلام المسدي)، وتتسم بالآتي:

(أ) سيطرة الغموض.

(ب) غياب مدلول الاصطلاحات المستعملة في النص.

(جـ) غياب سؤال أو فرض الدراسة.

(د) غياب النتائج .

(3) تفكيك النقد (عبد السلام بنعبد العالي)، وتتسم بالآتي:

(أ) سيطرة الغموض على النص.

(ب) غياب تحديد مدلول الاصطلاحات الواردة فيها.

(جـ) غياب سؤال أو فرض البحث. (د) غياب النتائج .

(4) نظرية العماء الأدبي وبلاغة التشويش (سعيد علوش)، وتتسم بالآتي:

(أ) سيطرة الغموض على النص.

(ب) غياب تحديد مدلول المصطلحات.

(جـ) غياب سؤال أو فرض البحث. (د) غياب النتائج .

obeikandl.com

(5) موت النص (أبو الفضل بدران)، وتتسم بالآتي:

(أ) غياب تحديد مدلول المصطلحات.

(ب) سيطرة الغموض على النص.

(جـ) غياب سؤال أو فرض البحث.

(د) غياب النتائج .

(6) خطاب ما بعد الاستقلال في أفريقيا (فريال جبوري غزول)، وتتسم بالآتي:

(أ) الاهتمام بالموضوع وبالمعلومات الخاصة به فقط.

(ب) عرض متماسك ومعلومات قيمة.

(جـ) غياب سؤال أو فرض الدراسة.

(د) غياب النتائج. (هـ) اللغة عادية.

(7) التعددية الثقافية والتفاعل بين الاتجاهات النقدية (حامد أبو أحمد)، وتتسم بالآتي:

(أ) الوضوح في معالجة الموضوع وفي عرض المعلومات عنه.

(ب) اللغة عادية.

(جـ) غياب تحديد مدلول المصطلاحات.

(د) غياب سؤال أو فرض الدراسة. (هـ) غياب النتائج.

(8) النظرية والسنة الغربية (محسن جاسم الموسوي)، وتتسم بالآتي:

(أ) التركيز على عرض المعلومات والحقائق عن الموضوع.

(ب) غياب سؤال أو فرض الدراسة.

(جـ) غياب النتائج. (د) اللغة عادية.

(9) مستقبل النقد: غربة السياق (سعد اليازعي)، وتتسم بالآتي:

(أ) عرض يتميز بالتماسك والمعلومات القيمة.

(ب) يسيطر عليه الاهتمام بالمعلومات الخاصة بالموضوع.

(جـ) غياب سؤال أو فرض الدراسة

(د) غياب النتائج. (هـ) اللغة عادية.

obeikandl.com

(10) في نقد الخطاب النقدي (وليد منير)، وتتسم بالآتي:

(أ) وضوح معالجة الموضوع.

(ب) التركيز على المعلومات.

(جـ) غياب سؤال أو فرض الدراسة

(د) غياب النتائج.

(هـ) اللغة عادية.

(11) نقادنا ونقدنا العربي الحديث (يوسف بكار)، وتتسم بالآتي:

(أ) سيطرة اللغة العادية والمعالجة الصحفية.

(ب) عرض طيب ومعلومات قيمة.

(جـ) غياب سؤال أو فرض الدراسة

(د) غياب النتائج.

(12) مأزق الناقد العربي على مشارف القرن القادم (سيد البحراوي)، وتتسم بالآتي:

(أ) معالجة الموضوع بلغة عادية.

(ب) التركيز على المعلومات وحدها.

(جـ) غياب سؤال أو فرض الدراسة

(د) غياب النتائج.

(13) النص والواقع (السيد فضل)، وتتسم بالآتي:

(أ) سيطرة اللغة العادية والمعالجة الصحفية.

(ب) الوضوح في الرؤية.

(جـ) غياب سؤال أو فرض الدراسة

(د) غياب النتائج.

(14) النظرية الأدبية: لها ما عليها (ميجان الرويلي)، وتتسم بالآتي:

(أ) عرض متماسك ومعلومات قيمة.

(ب) غياب تحديد مدلول المصطلاحات.

(جـ) غياب سؤال أو فرض الدراسة.

(د) غياب النتائج.

(هـ) اللغة عادية.

obeikandl.com

التعليق :

من الملاحظ أن مجموع الدراسات الواردة في الجدول السابق 16 دراسة ليس بينها سوى واحدة توافر فيها شروط الروح العلمية، أي بنسبة لا تزيد على 5٪ والباقية وتمثل (95٪) من مجمل الدراسات لا تخضع لهذه الشروط العلمية، وإذا دققنا النظر في العناصر التي تتسم بها هذه الدراسات وجدناها تكشف عن مظاهر غياب هذه الشروط بطرق متشابهة.

فهناك على الدوام غياب سؤال أو فرض الدراسة، وغياب النتائج وإن كان هناك اختلاف في بعض عناصر تناول موضوع الدراسة، لكن هذا الاختلاف قليل ونادر، ولا نريد الاهتمام به، لأنه من الجزئيات، والاهتمام بهذا الجانب يجعلنا نتجه نحو تصنيف الوحدات والعناصر الجزئية، كالقول مثلاً بأن دراسة د. يوسف بكار تضمنت عنصر المعلومات القيمة، حسب سمات دراسته السابقة الإشارة إليها: وأن دراسة د. سيد البحراوي تضمنت عنصر معالجة موضوعها بلغة عادية، وأن دراسة د. حامد أو أحمد تضمنت عنصر الوضوح في معالج الموضوع، وأن دراسة د. فريال جبوري غزول تضمنت عنصر تماسك عرض الموضوع، وحين نبحث عن مدى الاختلاف بين بعض الدراسات، ننتهي إلى التصنيف الذي يقف بنا عند حدود وصف الظاهرة دون التفسير الذي ننشده لدراستنا، ثم إن هناك تشابهًا أو تجانسًا بين أغلب خطوات الباحثين في معالج موضوعاتهم.

فمثلاً يلاحظ القارئ أن ظاهرة غياب سؤال أو فرض الدراسة شائع في نصوص الدراسات بنسبة 100٪، وأن ظاهرة غياب نتائج الدراسة شائعة في نصوص الدراسات بنسبة 100٪، وأن ظاهرة عدم تحديد مدلول المصطلحات التي استعملها الباحث في نص دراسته بنسبة 50٪ من مجمل عدد الدراسات، وهذا التجانس أو التشابه هو شيء قائم ويحتم علينا النظر فيه والبحث له عن تفسير موضوعي، وهذا التشابه أو التجانس في الكثير من عناصر طرق معالجة الدراسة الأدبية أو النقدية معناه أننا سنقف على العناصر الكلية الفعالة التي تشكل جوانب المنهج في 87.5٪ من مجمل الدراسات.

1 – من خلال النظر إلى موضوع دراسات الفئة الثانية، نلاحظ أن مجملها متشابه أو متجانس في وجود حقيقية دينامية تؤكدها وتعبر عنها نصوص هذه الفئة، ألا وهي غياب سؤال أو فرض الدراسة أو البحث، وهذه الظاهرة ـ كما ألمحنا سابقًا ـ شائعة في كافة نصوص 14 دراسة، أي بنسبة 100٪ تقريبًا، وهي تبدو ظاهرة ثقافية ـ حضارية في نفس الوقت، نظرًا لوجود مكتسبات ومؤثرات فاعلة في ذهن الباحث أو الناقد مصدرها طبيعة ثقافته وطبيعة حضارته، تساهم في رسم تصور عام لمفهوم الدراسة أو البحث العلمي في ميدان النقد أو الأدب.

إن الباحث أو الناقد يتصور أن الدراسة العلمية تعني بالنسبة له اختيار موضوع ما جديد أو حديث، وتوظيف كل طاقاته الذهنية في تكديس وتجميع معلومات مختلفة من مصادر متعددة عن هذا الموضوع، دون أن يطرح على نفسه السؤال: ما الذي يريد أن يتناوله في موضوع هذه الدراسة أو البحث؟، ما هو الإشكال؟ أو ما هو الشيء الذي يريد أن ينفيه أو يريد إثباته؟، أو ما هو الشيء الذي يجعل ظاهرة ما أدبية أو ثقافية، تظهر أو تختفي في فترة معينة؟ أو بعبارة أخرى ما هو سؤال البحث؟

إن غياب سؤال أو فرض البحث أو الدراسة كما هو الحال في مجمل دراسات الفئة الثانية، معناه أننا لا نعرف مقدمًا الهدف من وراء موضوع البحث أو الدراسة سوى عرض وتكديس قدر ضئيل أو كبير من المعلومات الجيدة أو الرديئة دون طائل.

إن عملية رصد الوقائع أو تسجيلها أو عرض أنماط مختلفة من البيانات أو المعلومات دون سؤال أو فرض سابق، تعتبر عملية تكديس لا جدوى منها، فالدراسة أو البحث لا يصبح علميًا في جانب كبير منه ـ إلا إذا طرح الباحث أو الناقد سؤالاً أو فرضًا سابقًا، لذلك فإن سرد الوقائع أو حشد المعلومات أو البيانات وتكديسها لا يعد أمرًا نافعًا للبحث أو الدراسة، بل يصبح بمثابة سيارة تسير في طريق عام متجاوزة حدود القواعد أو في حدود القواعد، لكن بسؤال سائقها، أين متجه الآن؟ الجواب سائر في الطريق، مجرد سائر فقط.

أو كشخص ذهب إلى مقهى من أجل الحديث مع الآخرين، مجرد الحديث دون أن نعلم شيئًا في سبب هذه الرغبة، وما أساسها؟ وما الهدف من وراء هذا الحديث؟

2 – إذا ما انتقلنا إلى ظاهرة أخرى شائعة في خطوات الناقد أو الباحث في معالجة موضوع دراسته، ألا وهي غياب عنصر نتائج الدراسة، لقد ذكرنا في موضع سابق أن العلم هو المنهج، ونضيف هنا عنصرًا آخر ونقول: أن العلم هو المنهج والنتائج، فإذا كانت خطوات معالجة الناقد أو الباحث لموضوعه خطوات علمية، فإن هذه الخطوات تحتم عليه أن ينتهي إلى عدد محدد من النتائج، في حين أننا نلاحظ أن 15 دراسة وصفها مقرر المؤتمر ووصف غيرها من الدراسات بأنها دراسات علمية.

ما دلالة هذا الوصف؟ وما دلالة غياب النتائج في 87.5٪ من مجمل الدراسات الواردة في الجدول السابق الإشارة إليه؟ إن هذا الوصف زائف ودلالة عدم تحديد مساحة في الدراسة للنتائج معناه أن صاحب الدراسة قام بإنجاز نصّ ليس له ثمار، أو لم يصل من وراء هذا النص إلى شيء محدد، وهذا مظهر من مظاهر غياب شروط الروح العلمية في حقل الدراسات الأدبية، ومن البديهي أننا لا نستطيع أن نعمم رأينا من خلال تحليل 15 دراسة قام بها عدد من النقاد والباحثين، وعلى هذا الأساس سنؤجل إعطاء رأي حاسم في هذه المسألة إلى حين أن نتناول مجمل العناصر المنهجية للدراسات الواردة في المجلد الثاني، ونكتفي الآن بالإشارة إلى أن حقل الدراسات الأدبية مازال يغيب عنه خطوات المعالجة الموضوعية السائدة في ميدان العلوم الإنسانية، هذا رغم الجهود التي بذلها النقاد والباحثين في عقدي الثمانينيات والتسعينيات، ومازال يبذلها البعض لمحاولة الارتقاء بمنهج الدراسة الأدبية وجعلها تقترب من منهج العلوم الإنسانية، لكن ما يبذل من جهود شيء وما هو قائم في الواقع شيء آخر.

إن غياب النتائج عن الدراسة أو عن خطوات الدراسة يعني أن الناقد أو الباحث لم يدرك أن النتائج تمثل جزءًا جوهريًا بالنسبة للعلم وبالنسبة لكل نشاط بحثي يقوم به جماعة من الباحثين لهم صفة أكاديمية أو مستوى أكاديمي معين، فأغلب أصحاب هذه الدراسات يعملون في مؤسسات جامعية، ومن بينهم أساتذة كبار لهم صيت وشهرة واسعة، كما أشرنا من قبل ومع هذا وقعوا في هذا الخطأ أو العيب المنهجي.

إن غياب النتائج عن الدراسة كما هو الحال في الدراسات المشار إليها معناه أن الناقد أو الباحث قد أنهى عمله وهو مازال يحتاج إلى خطوة أخرى تبرز ثمار المقدمات والعروض النظرية والبيانات والحقائق الأدبية الواردة في نص الدراسة، إن ترك الباحث أو الناقد لنتائج الدراسة جانبًا، أشبه برجل أراد أن يصعد قمة جبال الهملايا، فوقف قبل صعوده أمام جمهور من الناس وأخذ يخطب فيهم ويوضح لهم كيف أنه سيحقق ما لم يحققه أحد من قبل، وتسلق جزءًا لا بأس به من الجبل، ثم توقف فجأة ونزل إلى الأرض معلنًا للناس أن مهمته قد انتهت.

3 – إذا ما انتقلنا إلى ظاهرة أخرى هي ظاهرة استعمال الباحث لمصطلحات دون تحديد مدلولها في بنية النص لاحظنا أن 50٪ من مجمل نصوص الدراسات الواردة بالجدول يسيطر عليها هذه الظاهرة، وعدم تحديد مدلول المصطلح في النص معناه أن الناقد أو الباحث لم يتعامل مع المصطلح وفق القواعد المعمول بها في ميدان العلوم الإنسانية، أو التجريبية، أو بعبارة أخرى، وفق القواعد الموضوعية التي تقررها البحوث العلمية، والتي تعتبر أن تحديد كل عبارة أو اصطلاح ورد في نص الدراسة جزء أساسي من مهمة الباحث أو الناقد النظرية، وإهمال تحديد مضمون المصطلح (وهو غالبًا اصطلاح أجنبي) معناه أن الباحث أو الناقد لم يكمل مهمته النظرية تجاه مسألة المفاهيم الحديثة المنقولة من ثقافة الغرب، فهو يستخدمها فقط باعتبارها لونًا من ألوان الحداثة أو مظهر من مظاهر الاتصال بالثقافة الحديثة، نظرًا لأن استخدام الاصطلاح الحديث له شروط في نقله وفي صياغته، وفي مدلوله، ومن أهم هذه الشروط تطبيع الاصطلاح مع اللغة والثقافة العربية، ومن أبرز مظاهر هذا التطبيع هو أن يحدد الناقد أو الباحث مضمونه في الثقافة المنقولة عنها وفي الثقافة المنقول إليها، وهو الشيء الذي لم يحدث في مجمل نصوص الدراسات التي ورد في ثناياها استعمال أو ذكر مصطلحات جديدة أو حديثة.

4 – إن القارئ يلاحظ أن 80٪ من مجمل الدراسات يسيطر عليها اللغة العادية، ونقصد بهذه اللغة تلك اللغة التي تلوكها ألسنتنا في حياتنا اليومية. وهذه اللغة

تحدثنا عن موضوعات أو ظواهر، كما ندركها بطريقة ساذجة وهي تصف لنا المسائل الفكرية كما يصفها الصحفي في مقاله، في حين أن لغة النص الدراسي ـ لا سيما العلمي حسب وصف مقرر المؤتمر ـ ينبغي من وجهة نظرنا أن تكون لغة ذات مفردات خاصة تفسر الواقع أو الظواهر بطريقة تكشف عن طبيعة العلاقات المختلفة فيما بينها.

إن شيوع اللغة العادية أو الصحفية في معالجة الدراسة الأدبية يخرجها من دائرة الدراسات ذات الصبغة العلمية؛ لأن معالجة الدراسة بلغة أو معايير صحفية يعني أنها فقدت كل مقوماتها الأكاديمية، وتخلت عن صياغة مادتها في إطار موضوعي محدد، وحطمت كافة الحدود الفاصلة بين ما هو علمي وبين ما هو صحفي من زاوية طريقة المعالجة للظواهر والقضايا النظرية والعلمية، فضلاً عن أن هذه اللغة العادية أو الصحفية، تقترب من أسلوب الخطابة الذي يعتمد على الإغراء وليس أسلوبًا يعتمد على الإقناع.

5 – إن القارئ يلاحظ أن 19٪ من نصوص الدراسات الواردة في الجدول يسيطر عليها الغموض، وكل بحث أو دراسة غامضة يجب أن تنزع عنها صفة العلم؛ لأن من أهم صفات ومهام هذا الأخير أن يلقي الضوء على كل ما هو غامض أو مجهول، وغموض نص البحث أو الدراسة معناه: إما أن صاحبه مغترب عن موضوعه، وإما أن عقله لم يفهم مادة موضوعة ويستوعبها بطريقة طيبة، لأن تحقيق شرطي الفهم والاستيعاب للموضوع ومادته يتيح لصاحبه أن يتفاعل معه بدرجة عالية من درجات التفاعل تسمح له أن يصيغ موضوعه بلغة علمية دقيقة توضح كل الدلالات التي يقصدها الباحث أو الدارس.

وفيما يلي بضعة أمثلة لدراسات هذه الفئة، أجرى د. سيد البحراوي دراسة عن "مأزق الناقد العربي على مشارف القرن الحادي والعشرين" يبدأها وينهيها بالحديث عن آثار العولمة (الذي يطلق عليه اسم النظام العالمي الجديد) على المشهد الثقافي والأدبي والنقدي في القرن القادم، في ظل الهيمنة الأمريكية، و"ماذا لو تراجعت هذه الهيمنة لتفسح مكانًا أكبر للكيان الأوربي الموحد"،

و"أين سيتحدد مصير نقدنا العربي في القرن القادم" في ظل التبعية الذهنية للناقد العربي الحديث، للنموذج العربي في التفكير والتطور، ولقد فشل النقاد مع المثقفين في تحقيق المجتمع الحديث، أو في إنجاز الحداثة، وأن مواجهة ما بعد الحداثة في القرن القادم في تقديره يقوم على سيناريوهين: الأول هو الاستمرار في التبعية الذهنية والثاني أن نكون قادرين على تحويل المسار تحويلاً جذريًا نحو فهم أعمق لتناقضات النظام العالمي الجديد، وأن النقد الاجتماعي الشامل ـ حسب رأيه ـ يزدهر ازدهارًا حقيقيًا، وينهي الدراسة بالحديث عن التيارات النقدية التي نحتاج إلى التواصل معها.

فما منهج البحراوي في هذه الدراسة؟

هو منهج صحفي يميل في بعض الحالات إلى الوصف: يبدأ بعرض معلومات أو ملاحظات عابرة حول بعض آثار العولمة في أفريقيا وأسيا وأوربا، ثم يحاول ـ دون أن يوفق ـ الربط بين هذه الآثار وبين الواقع الثقافي والأدبي والنقدي بوساطة جمل وأسلوب شبيهة بالأسلوب الخطابي الذي يعتمد على الإغراء، وليس على الإقناع، دون أن يحاول أن يفسر تلك الرابطة بقدر ما يضعها في إطار ساذج لا يجاوز حدود التفسير بالألفاظ والعبارات.

والبحراوي اتخذ من موضوع "مأزق الناقد العربي على مشارف القرن الحادي والعشرين" مجالاً لدراسته، لكنه لم يقصد منذ البداية الاقتصار على النظر فيما أسماه "مأزق الناقد العربي" في مشارف القرن، وقد كان من أثر ذلك ما نلمحه من خلط بين الحديث عن العولمة. والحديث عن "الناقد العربي" في مشارف القرن، إنه يتحدث عن آثار سياسة العولمة، وليس عن مأزق الناقد العربي، كما أراد وقد يقبل هذا الخلط في مقال صحفي وليس في دراسة ـ يدعي مقرر المؤتمر ـ أنها علمية كان ينبغي عليه أن يحدد لنا، إذا كان يريد أن يتحدث عن آثار العولمة على بعض جوانب الواقع الثقافي من حيث هو واقع غير منعزل عن هذه الآثار؟ أم يريد أن يحدثنا عن مأزق الناقد العربي؟ فإذا كان يريد أن يحدثنا عن هذا الأخير فإنه حتمًا يخص بالذكر مظاهر أزمة النقد العربي الحداثي وما بعد الحداثي من زاوية

القارئ، والمصطلح والمنهج، وذلك يتم عن طريق دراسة تجريبية يرجع فيها إلى النصوص النقدية، ولكن يظهر أن هذا الخلط عند البحراوي يرجع إلى غياب سؤال أو فرض الدراسة، الأمر الذي جعل المجالين متشابهين بحيث يمكن معرفة آثار سياسة العولمة الثقافية بمجرد معرفة مأزق الناقد العربي.

لقد أراد الباحث أن يتناول الموضوع الذي اختاره للدراسة دون أن نعرف الأسباب الموضوعية لاختيار هذا الموضوع، ودون أن نعرف أو نشاهد مظاهر "أزمة الناقد العربي" في نص الدراسة، بل يلمسها القارئ من خلال الجمل والعبارات.

ولننظر بشيء من التدقيق، ماذا فعل؟ أو كيف تناول الموضوع؟ وفي ذلك دليل كاف على منهجه، وها هي خطواته:

(1) عرض تمهيدي يشغل 50٪ من مساحة الدراسة يدور حول آثار العولمة على بعض الجوانب الثقافية والسياسية.

(2) الاستعانة بعرض بعض المعلومات العابرة حول آثارها الاقتصادية.

(3) تعليق على إهدار الوظائف الأساسية للنقد.

(4) عرض لما أسماه سيناريوهات مواجهة الحداثة.

(5) نهاية للدراسة بدون نتائج محددة.

تلك هي الخطوات التي حققها الباحث في دراسته عن مأزق الناقد العربي، ولنا بعد ذلك أن نتساءل: وما قيمة هذا كله في حدود الحديث عن أزمة الناقد وهو على مشارف القرن الحادي والعشرين؟ إنه خارج حدود هذا الحديث ويبدو ذلك واضحًا في النتيجة التي انتهى إليها البحراوي والتي يقول فيها: "هذه أمثلة للتيارات النقدية التي نحتاج إلى التواصل معها، من منطلق الوعي المشار إليه سابقًا بالخصوصية والاحتياجات، لتكوين ما يمكن أن نسميه جبهة نقدية عالمية قادرة على مواجهة تيار الاستلاب والهيمنة في النظام العالمي الجديد، ولأن مثل هذا التواصل لا يمكن أن يتم عبر مؤسسات ومجالات السلطة المهيمنة في مصر والتي تنتمي بوعي، أو بدون وعي، تبعًا لانتماء السلطة نفسها . . إلخ!!

هذه النتيجة التي انتهى إليها الباحث تجعلنا نذهب إلى القول: إننا بصدد دراسة

تخلو من النتائج، حاول الباحث أن يحدثنا عن مأزق الناقد العربي على مشارف القرن الحادي والعشرين، فاعتمد في ذلك على منهج صحفي ولغة عادية أدت إلى عدم وجود ترابط منطقي بين المقدمات وبين النتائج وبين الموضوع الذي في ذهن الباحث، بحيث فقد القارئ التماسك بين النص القائم في مضمون الدراسة وبين ما كانت تنشده الدراسة من خلال العنوان الذي حدده البحراوي للقارئ.

وأجرى د. عبد السلام المسدي دراسة في "النقد الأدبي وتوليد الانساق" يسيطر على جوانبها الغموض والاصطلاحات غير المألوفة (غير المحددة المدلول) وعدم التماسك المنطقي والعضوي، بحيث تبدو وكأنها دراسة مترجمة عن نص أجنبي، والقارئ يجد مثل هذه الفقرات: « ليست علاقة المعرفة النقدية بالمعرفة اللغوية في حاجة إلى شيء مثلما هي اليوم في حاجة إلى "منهجة" نظرية تكون بمثابة التأسيس للرابط التضافري الذي يصل بعضهما ببعض، فلو جرأنا على اللغة وصفنا منها بحسب حاجتنا المفهومية العينية لقلنا هي الحاجة إلى عملية "تنهيج" أي إلى خطة منهجية تستحيل إلى تأصيل للبرنامج المعرفي، هي الحاجة أيضًا إلى وعي بالعلاقة الاستثمارية بين حقلين من النشاط الفكري، يمكن لها أن تقوم بوظيفة الإخصاب الإبيستيمي عن طريق تحديد بؤرة الفعل المشترك ».

« لا شك أننا واثقون الآن بأن رصدنا لبؤرة التواشج المعرفي يقتضي الانطلاق من استذكار خصوصية المعرفية كما تبدلت بحسب الأنموذج الحضاري والفكري، فالأنموذج العربي كما هو بديهي لدينا قد تأسس في مورثة الحي الذكي على إخصاب الأدب بالمعرفة البلاغية وإخصاب البلاغة بالمعرفة النقدية، وعلى ولد علم الإعجاز كمحطة إبيستيمية متكاملة، والأنموذج اللاتيني قد تم التخاصب فيه بين علم الأدبوعلم التاريخ، علم نحو أثمر عمّا أصبح يعرف بالمنهج العلمي، سواء في حقل اللغة أو في حقل الأدب، وهو الأنموذج الذي تولدت منه، بفضل القطيعة المعرفية، لسانيات فرديناند دي سوسير ».

« أما الأنموذج الأنجلو سكسوني الذي يتخلق في أرحام اللغة الإنجليزية ـ بعد أن صيغ اللاتي بالفرنسية، والعربي الإسلامي بالعربية ـ فقد انبثق مفتولاً على جدلية

الأدب وقضية الاكتساب اللغوي، على نحو دفع به إلى أعماق المحيط غوصًا على بذور التأويل، فلقد كانت مهمة النحو التوليدي، على مستوى إنضاج المعرفة المتصلة بالكلام البشري، أن يحضر الباطن وينبش في طبقات النشأة اللغوية الأولى . . إلخ ».

يلاحظ القارئ بسهولة على نص الفقرات السابقة الغموض وعدم التماسك العضوي أو الفكري، ولا يدري بعد قراءة الدراسة بكاملها ماذا يريد أن يقول لنا الباحث أو الناقد، فهو حائر منذ بداية الفقرة الأولى حتى الفقرة الأخيرة من الدراسة، ماذا يستخلص أو ماذا يخرج من ورائها خاصة وأنها خالية من النتائج، ولا تنطلق من سؤال أو فرض.

فضلاً عن أن الناقد أو الباحث لم يحدد لنا مدلول أو مضمون المصطلحات التي استخدمها في الدراسة، ذلك مثل:

"المفهومية العينية"، "عملية تنهيج"، "الإخصاب الإبيستيمي"، "بؤرة الفعل المشترك"، "بؤرة التواشيج المعرفي"، "خصوصية المؤسسة المعرفية"، "إبيستمية"، "علم الأدب"، "القطيعة المعرفية" . . إلخ، إذا دققنا النظر في هذه المصطلحات أو التراكيب، نجد أنها بلا معنى محدد في النص وتضفي عليه مزيدًا من الغموض.

إن تحديد المصطلح، مسألة ضرورية في الدراسة أو البحث تساعد القارئ والباحث على ضبط أفكارهما وإلقاء الضوء على كل ما هو غير مألوف من زاوية الدلالة أو المعنى، وعدم القيام بهذه المهمة من قبل الباحث أو الناقد يعني من وجهة نظرنا أنه يستخدم هذه المصطلحات وتلك التراكيب على سبيل لفت انتباه القارئ وإضفاء لون من ألوان الحداثة على نصه.

أما نتيجة الدراسة فقد جاءت على الوجه التالي:

« وعندئذ نصل إلى لحظة الإنجاب الإبيستيمي، حيث نعيد نمذجة الزمني بوضع مفهومين جديرين لهما: مفهوم الزمن النقدي، ومفهوم الزمن الدلالي.

فأما الأول فهو: التغذية الراجعة من اللسانيات إلى النقد الأدبي، قرائنهما التضافري.

وأما الثاني فهو: التغذية الراجعة من النقد الأدبي إلى اللسانيات بموجب بنود عقود المشاركة المعرفية ».

ليست هذه النهاية هي نتائج البحث أو الدراسة، وإنما استمر في الحديث عن الموضوع الذي يتحدث عنه الناقد أو الباحث، والذي لا يبدو للقارئ واضحًا منذ الفقرة الأولى، لأنه لا يعرف بدقة ما الموضوع الذي يريد الباحث أن الناقد أو يتحدث عنه أو يعالجه في هذه الدراسة.

وتناول د. سعيد علوش دراسة بعنوان "نظرية العماء الأدبي وبلاغة التشويش النقدي" تتسم بالغموض وتفتقد الهدف الذي تسعى إلى نفيه أو إثباته، وهي تتعرض للعناصر الآتية:

1 – ما قبل التعريف .

2 – عماء المعجم وتشويش البصيرة .

3 – عماء العلم وبصيرة الأدب .

4 – نقد العماء وتبصير التشويش .

5 – التشميل السالب والإفراد الموجب .

6 – بلاغة التشويش بين المجاز والحقيقة .

7 – أغلوطة القصد أو أغلوطة التشديد.

ثم يحاول أن يطبق هذه المفاهيم غير المحددة الدلالة في النص على محمد مفتاح، وعبد الله الغذامي.

إن الدراسة منذ البداية والقارئ لا يعرف ما هو الهدف الذي تسعى إلى تحقيقه أو ما هو السؤال أو الفرض الذي تريد أن تتجه نحو إثباته أو دحضه والباحث ينتقل من عنصر إلى آخر دون أن يجد القارئ تماسكًا أو ترابطًا منطقيًا أو موضوعيًا بين كل عنصر وآخر، أنه منذ البداية وهو يتساءل: ما نظرية العماء الأدبي؟ وما بلاغة التشويش التي أراد الباحث أو الناقد أن يتحدث عنها؟ ولماذا اختار هذا الموضوع؟ وما أهميته؟ وماذا يمكن أن يفيد النقد أو الدراسة الأدبية من وراء الذي يسميه الباحث "العماء" و"التشويش"؟

إن الغموض يكاد يسيطر على أغلب هذه العناصر التي لم يوضح لنا مدلولها في النص، وما النتائج التي انتهى إليها الناقد أو الباحث؟ الجواب: لا نجد نتائجًا كما لا

نجد مقدمات قائمة على أساس موضوعي تجعل القارئ يفهم المنطق الذي دفع النـاقد أو الباحث لتناول هذا الموضوع.

وأجرى د. يوسف بكار دراسة بعنوان "نقادنا ونقدنـا العربـي الحديـث" اعتمـد فيها على جمع وتسجيل لآراء عدد من النقاد والباحثين حول مظاهر أزمة النقد العربي الحديث. وقد قام بجمع هذه الآراء وتوقف عندها، ولـم يحـاول الانطـلاق منـها إلـى البحث عن مظاهر هذه الأزمة في مفاهيم وفي مناهج النقد العربي، وهذا خطأ منـهجي لأنه؛ يستخلص مظاهر الأزمة من الآراء النظرية وليس من نصوص النقد العربي ذاته.

والقارئ منذ بداية الدراسة وهو يتساءل إذا كان الباحث يريد أن يحدثنا عـن آراء النقاد العرب في مظاهر أزمة النقد العربي الحديث، أم عن أزمة النقد العربي الحديـث، إذا كان يريد أن يحدثنا عن أزمة النقد كان ينبغي عليه أن يسـتخلص منطـق وجودهـا من نصوص النقد ذاته لا من آراء النقاد والباحثين فقط.

حقًا إن الباحث رصد بدقة معظم الآراء التي توضح مظاهر أزمة النقـد العربـي الحديث حيث جمع نحو أكثر من 36 رأيًا يؤكد هذه الحقيقة، لكنه لم يوضح لنا كيف استفاد من تسجيل ورصد هذه الآراء، فقام بدور الصحفي لا بـدور البـاحث الـذي يستعين بالآراء لإثبات حقيقة معينة وينطلق منها إلى إثبـات حقيقـة أخـرى، ولعـل الذي جعل اللغة العادية والمعالجة الصحفية تسيطر على الدراسة هو غيـاب سـؤال أو فرض الدراسة.

لقد أنتهت الدراسة عند رأي أحد الذين يستشـهد بهم في تأكيد وجود هذه الأزمـة، ومعنى ذلك أن مهمته كانت مهمة رصد وتسجيل وتجميـع بيانـات ومعلومـات حـول مظاهر أزمة النقد العربي الحديث، ولم يحاول أن يستخلص من هـذه المقدمـات عـددًا محددًا من النتائج، نظرًا لأن شاغله الأوحد كان جمع المعلومات ورصد هـذه الآراء لا تحقيق نتائج محددة.

بذلك نكون قد انتهينا من عرضنا بعض أمثلة من نمـاذج دراسـات الفئـة الثانيـة، بحثنا فيها عن المنهج باعتبار أن المنهج هو العلم، ولا يمكن تقييم دراسة أو بحـث إلا من خلال منهجها، ولاحظنا أن هذه الفئة من الدراسـات متفقـة علـى وجـود عنـاصر

متشابهة في أسلوب معالجة الموضوع، وأن هذه العناصر تؤكد غياب الإطار العلمي الذي يصيغ موضوع الدراسة، فإذا دقق القارئ النظر في هذه العناصر وجدها تكشف عن مظاهر هذا الغياب، فهناك على الدوام اللغة العادية المستعملة في بناء نص الدراسة عجز الناقد أو الباحث أن يجعل منها لغة علمية.

حقًا هناك اختلاف بين بعض نصوص الدراسات من حيث اللغة ومن حيث درجة التماسك في بناء النص، غير أننا لا يمكننا الخروج بنظرة عامة لنصوص دراسات هذه الفئة من خلال الوقوف عند جزئيات منها، فأغلب نصوص هذه الدراسات متفقة على حقيقة واحدة، هي استعمال اللغة العادية والمعالجة الصحفية للموضوع الذي يتعامل معه الناقد أو الباحث، واستعمال هذه اللغة وتلك المعالجة جعلت الدراسة بلا سؤال أو فرض مسبق وبلا نتائج محددة.

وكأن الباحث أو الناقد لم تسعفه عاداته الفكرية أو العلمية أن يعالج موضوعه من خلال التركيز على المنهج أو على الإطار العلمي الذي يصيغ موضوعه، وركز اهتمامه ـ كالصحافي ـ على الموضوع والمعلومات واللغة العادية، ولو كان بوسعه أن يركز على المنهج أو على الإطار العلمي أولاً لفعل ذلك بغير شك، وعدم وجود إطار علمي أسهم بطريقة مباشرة في صبغ معالجة الموضوع بصبغة صحفية، لأن صاحب الدراسة ظهر بمظهر غير القادر على تحديد سؤال أو فرض الدراسة أو البحث، ومحاولة تحقيق هذا الفرض بوساطة التجريب في النصوص التي بين يديه، والوصول لعدد محدد من النتائج.

لم يول الباحث أو الناقد اهتمامه نحو هذه المسائل، وركز اهتمامه على سرد المعلومات المتعلقة بالموضوع، وأصبحت المعلومات المتعلقة بالموضوع هي الأساس الذي يدور حوله محور اهتمامه، إنه عجز واع أو غير واع عن التعامل العلمي مع البحث أو الدراسة، ويمكن اعتبار غياب هذا التعامل صورة من صور ضآلة مساحة الفكر العلمي في ثقافة الناقد أو الباحث.

إن عدم ربط الناقد أو الباحث بين موضوعه وبين إطار علمي محدد جعل دراسته أشد ميلاً إلى الملاحظة العابرة منها إلى الملاحظة المنظمة التي تعد من وجهة نظرنا

حجر الزاوية في بناء الإطار العلمي، وبقدر ابتعاد الباحث أو الناقد عن هذا الإطار يبتعد عن انطلاق دراسته انطلاقًا علميًا ويبتعد عن تحقيق أهداف نتائج معينة.

ومنهج الناقد أو الباحث في أساسه العميق وسيلة يستخدمها لتحقيق قدر كبير من تحقيق موضوعية النتائج، وموضوعية المشاهدة.

إذا كان هذا هو الأساس العميق لمنهج الناقد أو الباحث، فما تصورك لدراسة بلا مشاهدة موضوعية أو نتائج، أو نقاط انطلاق محددة، فإن غياب هذه العناصر المنهجية تجعل البحث أو الدراسة أشد ميل إلى العشوائية أو الانطباعية منها إلى النزعة العلمية أو الموضوعية.

إن الدراسة أو البحث يبدو في ذهن الباحث أو الناقد مجرد موضوع ومعلومات يكدسها أو يجمعها من هنا وهناك، والدليل على ذلك أنه لا يعتني بشيء آخر غير الموضوع والمعلومات التي تدور حوله، وهذا يوضح لنا السبب الذي يجعلنا نذهب إلى القول بأن هذه الدراسات غير مكتملة ومحدودة القيمة العلمية للأسباب السابق الإشارة إليها، فالبحث أو الدراسة العلمية في نظر أصحاب هذه الفئة من البحوث أو الدراسات عبارة عن اختيار موضوع ما في ميدان الدراسات أو البحوث الأدبية أو النقدية، وعرض أنماط مختلفة من المعلومات من مصادر أجنبية أو عربية.

وإذا تساءلنا: ومن أين للباحث أو الناقد هذه الفلسفة؟ كان لزامًا علينا أن نتبين نظرته للبحث أو الدراسة الأدبية أو النقدية وعلاقتها بواقعه الثقافي، والحضاري، فأما عن الأولى، فهي نظرة لا تهتم بتحقيق شروط الروح العلمية أو منطق الروح الموضوعية في معالجة البحث أو الدراسة، وأما عن الثاني، فهي الرأي الشائع عن معنى البحث أو الدراسة في ثقافة نامية، وهو إما معالجة موضوع ما في ضوء عدد من الخطوات الغامضة، والمصطلحات الحديثة غير المحددة المدلول، وإما معالجة موضوع ما من زاوية المعلومات والبيانات التي تدور حوله، والحالة الأولى يقوم بها عادة نقاد أو باحثون لا يعرفون لغة من اللغات الأوروبية، أو يعرفون القليل من هذه اللغة.

فئة الدراسات الأولى:

تتسم هذه الفئة من الدراسات بعدة سمات أساسية، أهمها: معالجة موضوع البحث

أو الدراسة وفق معايير ومفاهيم شروط الروح العلمية، فالدراسة أو البحث الوارد في هذه الفئة ليس مجرد عرض لمعلومات متماسكة أو غير متماسكة، وإنما هو في المقام الأول خطوات موضوعية في معالجة مسألة أو موضوع معين. والقارئ لا يجد ـ بكل أسف ـ نماذج كثيرة تندرج تحت هذه الفئة، إذ لا يوجد سوى دراسة واحدة من 16 دراسة، أي بنسبة 5٪ من إجمالي هذه الدراسات، وفيما يلي عرض للدراسة المسماة (النقد الأدبي ومسألة المرجع) (يمنى العيد):

تنهض هذه الدراسة على أساس العناية بالإطار العلمي الذي يصيغ المادة أو الموضوع الذي تتناوله الباحثة، ويركز على الخطوات التي تعالج الموضوع، وعلى المادة والمعلومات التي تغذي الموضوع في وقت معًا.

تبدأ "العيد" دراستها بتمهيد قصير عن منعطف هذا القرن وما يتميز به بشأن اختزال الإنسان وبعده التاريخي، وعلاقة النقد بالأعمال الأدبية باعتبارها علاقة مركبة أساسها المرجعية الاجتماعية، وحقلها ثقافة ليست واحدية سكونية، بل حركة تتميز، بدينامية التفاوت والاختلاف، والتناقض، ثم تناولت مسألة العلاقة بالمرجع في النظرة المثالية عند أفلاطون، وأرسطو، والعرب القدامى، ثم عند هيجل، وماركس، ثم انتقلت إلى الحديث عن سؤال الأدبية، ثم طرحت ثلاث أسئلة للبحث وحاولت الإجابة عنها، ثم توصلت إلى مجموعة من النتائج.

فما منهج العيد في هذه الدراسة؟ هو منهج تفسيري يميل أحيانًا إلى التحليل الوصفي، إنها تنظر في مجمل دوائر التفاعلات بين الوعي والواقع والبنيات الدالة في أنساق الخطاب الأدبي. وها هي خطواتها:

(1) تمهيد عن التغيرات التي طرأت على ثقافة العالم الثالث، وتحديد مدلول المرجعية في النقد القديم والحديث.

(2) طرح ثلاث أسئلة محور الدراسة.

(3) إجابة على هذه الأسئلة.

(4) الوصول إلى عدد محدود من النتائج.

تلك هي الخطوات التي اتبعتها الباحثة في معالجتها لموضوع "النقد الأدبي ومسالة المرجع"، وفي إجابتها عن سؤال البحث حاولت أن تتبع طبيعة العلاقة بين القراءة التأويلية والمرجعية الخاصة بالعمل الأدبي، ومنهجها ـ كما سبق وألمحنا من قبل ـ ضربًا من التفسير الموضوعي، فهناك على الدوام اهتمام بالكشف عن العلاقة بين المرجعية والنص، وهذه العلاقة قائمة على أساس اعتبار أن القراءة قائمة على أساس علاقتها بمرجعيتها الخاصة، وهذه القراءة تتيح للقارئ الناقد أن يساهم في بلورة المعنى العميق لوجودنا المشروط بالتاريخ وبالعلاقات التي تحكم الثقافة.

إن الفكرة العامة التي جعلت الباحثة تهتم "بمسألة المرجع" للنص أو العمل الأدبي هي التي توجه بحثها وتصبغه بصبغة تفسيرية منطقية، إنها تبحث في مختلف مستويات مرجع النص أو العمل الأدبي، وهذا يعني أن الباحثة حاولت أن تقدم لنا جوابًا للسؤال، ما وظيفة المرجع في قراءة النص أو العمل الأدبي؟ كما حاولت الإجابة على سؤال آخر هو: هل للنص امتدادات خارج نصية؟

وسؤال ثالث: كيف نمارس فعل الاستجابة؟ وحاولت البحث عن إجابة لهذه التساؤلات عند كل من باختين، وإدوارد سعيد.

وفي نتائج الدراسة، انتهت الباحثة إلى أن الممارسة النقدية بحاجة إلى أن تكون قراءة لا تعزل النص الأدبي ولا تفارق حياة لا يفارقها الأدب، وأن قراءة العمل الأدبي بوضعه في علاقة مع مرجعيتها الخاصة يخول للناقد أو الباحث أن يبلور المعنى الجوهري لوجود الأديب والناقد والقارئ المشروط بالتاريخ وبالعلاقات التي تحكم ثقافتهم.

ولا يؤخذ على الباحثة بوجه عام سوى جنوحها في بعض الأحيان إلى الغموض، واستعمال عدد من المفاهيم غير المحددة الدلالة في سياق نص الدراسة.

هذه عينة لا بأس بها من الدراسة التي تنتمي إلى فئة دراسات المجموعة الثانية، وفئة المجموعة الأولى في المجلد الأول، وننتقل الآن إلى نماذج أخرى من الدراسات المختلفة في المجلد الثاني، وهو يتضمن 12 دراسة جائت على النحو التالي :

جدول رقم (2)

المسلسل	اسم الباحث أو الناقد	العدد	عنوان الدراسة
1	د. نسمية الغيث.	1	البلاغة والاتصال
2	د. جمال عبد المجيد	2	البلاغة والاتصال
3	د. موسى ربابعة	3	الأسلوبية والاتصال والتأثير
4	د. مصطفى الكيلاني	4	إبدالات المبحث النقدي المعاصر
5	د. سيد قطب.	5	هوية الخطاب النقدي من اللسانيات إلى علم العلامات
6	د. منى صفوت	6	مفهوم التعبيرية بين تكون الإنسان وتطورها
7	د. سعيد توفيق	7	الهرمنيوطيقا والفن عند جادامر
8	د. حسن البنا	8	بول ريكور مكانته في النقد الأدبي
9	د. عفت الشرقاوي	9	في سبيل النسبية التأويلية للنص الديني
10	د. محمد غيث	10	في القراءة الأخرى للقرآن الكريم

من استقرائنا لمضمون الدراسات الواردة في هذا الجدول نلاحظ أنه لا يوجد من بين مجمل هذه الدراسات أو البحوث سوى دراسة واحدة يتوافر في معالجة موضوعها شروط الروح العلمية وهي (من مجمل الدراسات البالغة 10 دراسات).

نظرية تفصيلية:

فيما يلي عرض مفصل للدراسات التي تمثل الغالبية من الدراسات والتي لا تطبق المفاهيم والإطار العلمي (الفئة الأولى) ويندرج تحت هذه الفئة الدراسات الآتية:

(1) دراسة (البلاغة والاتصال، (نسيمة الغيث)، وتتسم من حيث المعالجة المنهجية بالآتي:

(أ) غياب سؤال أو فرض الدراسة.

(ب) غياب تحديد مدلول المصطلحات

(ج) الجنوح نحو الغموض.

(د) غياب النتائج .

(2) البلاغة والاتصال (جمال عبد المجيد)، وتتسم هذه الدراسة بالآتي:

(أ) غياب سؤال أو فرض الدراسة.

(ب) الجنوح نحو الغموض.

(جـ) غياب تحديد مدلول الاصطلاحات.

(د) غياب النتائج .

(3) الأسلوبية والاتصال والتأثير (موسى ربابعة)، وتتسم هذه الدراسة بالآتي:

(أ) غياب سؤال أو فرض الدراسة.

(ب) الجنوح نحو الغموض.

(جـ) غياب تحديد مدلول الاصطلاحات.

(د) غياب النتائج .

(4) إبدالات المبحث النقدي الأدبي المعاصر (مصطفي الكيلاني)، وتتسم هذه الدراسة بالآتي:

(أ) غياب سؤال أو فرض الدراسة.

(ب) غياب تحديد مدلول الاصطلاحات.

(جـ) التركيز على مادة الموضوع فقط.

(د) غياب النتائج. (هـ) اللغة عادية.

(5) هوية الخطاب النقدي من السانيات إلى علم العلامات (سيد قطب)، وتتسم بالآتي:

(أ) غياب سؤال أو فرض الدراسة.

(ب) غياب تحديد مدلول الاصطلاحات.

(جـ) التركيز على مادة الموضوع فقط.

(د) غياب النتائج.

(6) مفهوم التعبيري بين تكون الإنسان وتطورها (منى صفوت)، وتتسم هذه الدراسة بالآتي:

(أ) الاهتمام بالإطار العلمى للدراسة.

(ب) تحديد فرض للدراسة.

(جـ) تحديد مدلول المصطلحات.

obeikandl.com

(د) التركيز على مادة الموضوع وإطارها.

(هـ) تحقيق عدد محدد من النتائج.

(7) الهرمنيوطيقا والفن عند جادامر (سعيد توفيق)، وتتسم هذه الدراسة بالآتي:

(أ) غياب الإطار العلمي للموضوع.

(ب) غياب تحديد مدلول الاصطلاحات.

(جـ) غياب النتائج

(د) اللغة عادية.

(8) بول ريكور ومكانته في النقد الأدبي (حسن البنا)، وتتسم هذه الدراسة بالآتي:

(أ) عرض نظري طيب .

(ب) غياب سؤال أو فرض الدراسة.

(جـ) غياب تحديد مدلول المصطلاحات.

(د) غياب النتائج.

(هـ) غياب الإطار العلمي.

(و) اللغة عادية.

(9) فى سبيل النسبية التأويلية للنص الديني (عفت الشرقاوي)، وتتسم هذه الدراسة بالآتي:

(أ) عرض نظري طيب.

(ب) ينقصه سؤال أو فرض الدراسة.

(جـ) غياب تحديد مدلول المصطلاحات.

(د) غياب النتائج.

(10) في نقد الخطاب النقدي (وليد منير)، وتتسم هذه الدراسة بالآتي:

(أ) غياب سؤال أو فرض الدراسة.

(ب) التركيز على مادة الموضوع.

(جـ) غياب الإطار العلمي

(د) غياب النتائج. (هـ) اللغة عادية.

obeikandl.com

التعليق :

من المشاهد أن مجموع الأعمال الواردة في الجدول رقم (2) تبلغ 10 دراسات، من بينها دراسة واحدة تتوافر في معالجتها شروط الروح العلمية، أي بنسبة لا تزيد عن 10٪ والباقي وعددها 9 دراسات 90٪ لا يتوافر فيها هذه الشروط، فلم تكن هناك خطوات تسعى إلى:

1 – وضع فكرة عامة عن الموضوع مستمدة من الملاحظة.

2 – تكوين فرض أو طرح سؤال.

3 – محاولة الإجابة على هذا السؤال أو اختبار هذا الفرض بوساطة التجريب على النصوص التي بين يدي الباحث أو الناقد.

4 – الوصول إلى عدد محدد من النتائج.

لم يدر بخلد أصحاب هذه الدراسات التسع الواردة في الجدول رقم (2) كما لم يدر بخلد أصحاب الدراسات الواردة في الجدول رقم (1) والبالغة 14 دراسة، تحقيق الخطوات السابقة أو تحقيق خطوات مشابهة لها حتى تتوافر شروط الروح العلمية.

التعليق :

1 – 90٪ من الدراسات الواردة بالجدول رقم (2) متشابهة مع بعضها من زاوية المعالجة المنهجية، من حيث غياب سؤال أو فرض الدراسة أو البحث، فالدراسة لا تحدد أسباب تناولها لموضوع ما أو ظاهرة معينة، والقارئ لا يعرف لماذا يحدثنا الناقد أو الباحث عن هذا الموضوع؟ ولا يعرف أيضًا أين يجب أن يتجه بمادته من زاوية المعلومات؟ ولا يعرف أيضًا لماذا يخلط الباحث أو الناقد بين المعالجة الصحفية وبين المعالجة العلمية؟ ولا يعرف لماذا لا يدرك الباحث أو الناقد أن سؤال أو فرض البحث يعطي للمعلومات أو المادة التي يجمعها حول الموضوع وظيفة محددة، ولا يدري أخيرًا لماذا لا يدرك الباحث أو الناقد أن كل دراسة أو بحث يجب أن تنتهي بعدة نتائج محددة يصل إليها بوساطة الإجابة عن السؤال المطروح أو الفرض الذي كونه ليفسر الظاهرة موضوع البحث أو الدراسة .

2 – لم تطرح الدراسات المتناولة سؤال أو فرض الدراسة بنسبة 100٪.

3 – 90٪ من الدراسات الواردة في الجدول رقم (2) لم يحدد أصحابها مدلول المصطلحات الواردة في ثنايا نصوصها.

4 – 40٪ من الدراسات الواردة في الجدول يسيطر عليها الغموض.

5 – يغيب عن مجمل الدراسات خطوة تحديد النتائج، فهذه الخطوة لا يأخذ بها النقاد أو الباحثون في دراساتهم الواردة في الجدول السابق.

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نستخلص من التحليل والعرض السابق النقاط التالية:

- إن تحليل دراسات الجدول (1) والجدول (2) البالغ إجمالها 26 دراسة يوضحان للقارئ أن حوالي 98٪ من هذه الدراسات لا تعتمد على المفاهيم والأساليب العلمية في معالجة موضوع الدراسة.
- إن معظم هذه الدراسات متشابهة مع بعضها البعض من حيث المعالجة التي يغيب عنها الإطار العلمي بالمعنى الضيق أو الواسع.
- إن 98٪ من هذه الدراسات يغيب عنها النتائج التي يجب أن ينتهي إليها الباحث أو الدارس في نهاية الدراسة.
- إن مفهوم العلم عند أصحاب هذه الدراسات وعند مقرر المؤتمر الذي يشرف على هذه الدراسات هو مجرد ألفاظ أو عبارات إنشائية وصفية لا خطوات فعلية موضوعية في معالجة الموضوع.
- إن المنهج الصحفي أو المعلوماتي الذي يسيطر على فئة كبيرة من الدراسات يعكس ويعبر بمعنى ما عن النزعة التبسيطية القائمة في ثقافة الشرق العربي.

هوامش الفصل الثاني

(1) د. سيد البحراوي، "البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث"، شرقيات، القاهرة، 1993، ص ص 40 ، 42.

(2) رينيه ديكارت، "عن المنهج"، (ترجمة محمود الخضيري)، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2000، ص20.

(3) المرجع السابق، ص22.

(4) المرجع السابق، ص43.

(5) انظر تصديره للثلاث مجلدات التي صدرت في طبعة شاملة في مطابع المنار العربي، القاهرة، 1999، ص5.

(6) المجلد الأول بعنوان "النظرية الأدبية وتحولاتها"، ويتضمن 16 بحثًا.

(7) يحمل عنوان "جماليات التلقي"، ويتضمن 11 بحثًا.

(8) د. مصطفى سويف، "الأسس النفسية للإبداع الفني"، دار المعارف، القاهرة، 1969، ص ص 114 – 115.

(9) د. مصطفى سويف، "نحن والمستقبل"، هيئة الكتاب، القاهرة، 2000، ص12.

(10) سمير حجازي، "مشكلات الحداثة في النقد العربي"، الدار الثقافية القاهرة، 2001، الفصل الثاني.

(11) سمير حجازي، "النقد الأدبي المعاصر"، الكتاب الجامعي، الكويت، 1996، ص49.